

هذه القصة ليست مجرد خيال كاتب...
وليست صورة على جدار الواقع بل أنها فكر
قديم لازال يفرض وجوده إلى الآن

وغدوت مبصراً

وغدوت مبصراً

بقلم:

همسات حية

www.hamsat-haya.org

وغدوت مبصراً

هذه القصة ليست مجرد خيال كاتب...
وليست صورة على جدار الواقع
بل أنها فكر قديم لازال يفرض وجوده إلى الآن

في أحدي ليالي الشتاء الباردة حيث كان الجليد يغطي أغلب ممرات
الطرق كان هناك رجلاً في العقد الرابع من عمره يراقب كوخا يقبع على
مسيرة عشرة أقدام منه... وعلى الرغم من أن الجليد كان يتساقط بشدة
على جسمه إلا أنه كان وقافاً كتمثال من الجبس وكأنه لا يبالي...
كان الكوخ خاوياً وشبه مدفوناً تحت ركامات الجليد وكأنه مهجوراً منذ
زمن بعيد... سألت الدموع الساخنة على وجنتي الرجل فأخرج منديله
لكن يده لم تجرؤ أن تمسحها بالمنديل...

وقف صامتاً وقد وهب فكرة في رحلة الى الخلف بجوالي ثلاثين عاماً
حيث كان في الخامسة من عمره...

كان يعيش في أسرة مكونة من أب وأم والابن الوحيد توني كانت السعادة
هي العملة المتداولة بين أفرادها... كل شيء كان بينهما مشتركاً... كان
الأب يعمل مزارعاً وله مال وفير وكانت الأم وهي ربة الأسرة تلازم المنزل
لخدمة زوجها وأبنها...

وما من لحظات قليلة وقد نقص واحد من أفرادها... فقد شاءت الأقدار
أن تحرم هذه الأسرة الصغيرة من مدام فالبرايد وهي أم الصغير... وقف
توني الصغير بجوار والده وسط حشد العزيين وقد أمسك قبعته المسكينة
التي كانت شبه معتصرة بين يديه النحيلتين.

كان يبكي ويبكي وكان وفاة والدته قد فجر مشاعر كانت مدفونة في ذلك القلب الصغير... فقد كان يرى والده الذي يحبه جدا منكس الرأس يحبس الدمع في مقلتيه يخشى أن يبكي لنألا يزيد من آلام صغيره...

وكان ذلك قمة الألم بالنسبة لتوني ... أنتهى العزاء وذهب جميع المعزين إلى طريقهم بعد أن طبع بعضهم بعض قبلات الرثاء على وجنتي توني...

وقف الصبي ووالده وجهاً لوجه... قال الابن لابنه... والآن يا توني وقد رحلت ماما إلى السماء وتركنا سويا وليس معنى هذا أنها لن تظل منقوشة في قلبينا ... عندما تشتاق إليها فقط أغمض عينيك وتذكرها ... تخيلها تناديك وسوف تشعر بها كما تشعر بي الآن.. وهنا أرتمى توني في أحضان الأب الذي ضمه بشدة إلى صدره قائلاً:

" لاتبكي يا حبيبي فأنت الآن رجلاً نظيري. سنزيد من حبنا لبعضنا سنتآلف أكثر حتى لو قابلتنا أعتى الرياح ولو حاولت الأمواج قصف سفينتنا سيظل حبنا لبعضنا عربون قوتنا وتحدياً للتجارب"، أجاب توني "نعم يا والدي"

مرت السنوات وكأنها أيام قليلة بالنسبة لمستر فالبرايد وأبنه حيث كان الحب يغطي كل سلوكيات الأسرة الصغيرة وكان الصبي يعمل مع والده في حرث قطعة من الأرض كانت مملوكة لوالده.

وفي ذات يوم دخل توني إلى (المنزل) بعد انتهاؤه من اللعب مع جماعة الرفاق في الخارج فوجد والده يجلس على كرسي هزاز ويبدو انه غارق في أفكاره ... سأله توني بصوته المحب: والدي فيما تفكر؟! وهنا أفاق الوالد من سباته الفكري قائلاً بصوت متقطع " لا شيء ... لا شيء يا توني .." نظر توني إلى والده بنظرته المعهودة التي طالما تغلب الأب وتجعله يفصح عن كلما في قلبه إلا أن الأب بدا متحفظاً لأفكاره هذه المرة... قال توني : أبي قد عودتني أن تشاركني أفكارك وكذلك أنا ... أليس كذلك؟ أجاب الأب ... بلى

قال توني: إذن فيما تفكر؟!

أجاب الأب وقد عقد ساعديه على صدره ونظر بإمعان قي وجه توني :
فيك أنت يا توني؟
قال توني: وماذا بشأني؟
الأب: كنت أفكر في مستقبلك كيف سيصبح وأنا لا أريد أن أحرمك من
فرصتك في التعليم كي ما تصبح رجلاً يعتمد على نفسه من بعدي .
قاطعته توني : يبعد الله عنك كل شراً والدي ويعطيك دوام الصحة
والعافية...

يكمل الأب : وقد فكرت يا بني في أن أودعك المدرسة تلك التي تبعد عنا
3 أميال حتى يمكنك تعلم دروسك وحصولك على أعلى الشهادات... فما
رأيك يا بني...
أجاب الأخير ويبدو أنه كان ينتظر ذلك من والده منذ أيام حيث أن
أقرانه من الجيران قد التحقوا بنفس المدرسة: كما ترى يا أبي ...
ومرت الأيام والتحق توني بالمدرسة التي كانت تتكون من ثلاث طوابق
على الطراز البريطاني القديم إلا أن منظرها من الخارج كان يقبض قلب
من يراها لأول مرة.

لكن توني عندما رأى هذه البناية شعر في قرارة أعماقه أن شيئاً ما
سوف يحدث في هذه المدرسة يتصل بكيانه ... ربما...

كان الفصل الذي التحق به توني فصل عادي جداً ، تلاميذ في سنه
جالسين على مكاتب صغيرة يتعلمون وبدأ توني صاحب الشخصية المحبة
التي اكتسبت كثيراً في تكوينها من والده يعمل على كسب أصدقاء له وكان
الجميع يحب توني برغم أن توني أحياناً ما كان يبدو منطوياً وساذجاً...

إلا أن الطفل الصغير استطاع أن يستحوز على أعجاب مدرسيه وذلك من
فرط تفوقه العلمي لدرجة أنه في يوم كان توني جالساً كعادته في معمل
الكيمياء يقرأ بعض المعادلات مع أستاذه مستر سبنسر ومستر أدامز
فوجدوا في الولد نبوغ غير عادي فهتف مسز أدامز: توني أرى أنه سيكون
لك مستقبل مرموق في علم الكيمياء...

وقتها لم تكن الأرض تطيق توني سعادة الذي عاد إلى بيته وهو يقفز
كالأرنب من فرط سعادته... دخل توني حجرة مكتب والده حيث كان

جالساً كعادته على الكرسي الهزاز يقرأ إحدى الجرائد الإعلانية وقال
توني

مساء الخير يا والدي

أجاب الأب: مساء الخير يا حبيبي. أرى وجهك مشرقاً بالسعادة. ماذا
جرى يا ولدي فرحني معك!!

توني: اليوم يا أبي حصلت على شهادة طيبة من فم مسز أدامز.

قال الأب: وماذا قالت لك!؟

قال توني: قالت لي أنه سيكون لي مستقبل جيد في علم الكيمياء

قال الأب مفتخراً مشجعاً: برفوا يا توني أريدك على الدوام إلى الأمام...

أفاق توني من فرحته التي أغفلته عن سؤال والده عن سبب قراءته
لهذا النوع من الجرائد الذي لم تكن قراءته مألوفة على أبيه... فهتف وقد
ثبت نظره على الجريدة: أبي.. وقبل أن يكمل أدرك الأب مكنون سؤال
أبنه فقال له: نعم يا توني فأنا كما تعلم قد شارفت الأربعين ولا أستطيع
أن أقوم بأعمال الأرض بمفردي لذا فأنا أبحث في هذه الجريدة عن عامل
يساعدني في شؤونها...

قال الأب: يوفقك الله يا أبي... أتسمح لي بأن أجهز المائدة لتناول
طعامنا!؟

وسارت الأيام أسرع من عداء متميز وهنا صار توني شاباً يافعاً وقد
التحق بكلية العلوم عن مجموع عالي...

وبدأ يدرس الكيمياء - التي أحبها- ويعمل على البحث في خفاياها التي
كم أجبرته على قضاء الليالي ساهراً أمام بعض المعادلات الكيميائية
المعقدة...

أحب مستر فالبرايد أهتمامات أبنة الجديدة وقد جهز لأبنة كوخاً صغيراً
ملاصقاً بالمنزل يستخدمه توني كمعمل خاص له. وعمل الوالد المحب
على تجهيزه بجميع الأدوات والمحاليل والعناصر الكيميائية حتى صار
معمل توني أفضل من معمل الكلية ذاته.

كان هناك شيئاً آخر قد بدا يجذب اهتمام توني ألا وهو رؤيته لجانيت
أبنة الأستاذ المشرف عليه... كانت جانيت كفيفة... لكن رغم ذلك كان
هناك شيئاً غريباً فيها يجعل توني مشدوداً إليها...

حصل توني على بكالوريوس العلوم وأهله تقديره الممتاز أن يكمل في قسم الدراسات العليا ليصبح أستاذاً جامعياً .

كان الأب فرحاً جداً بنجاح ابنه... طلب توني من أباه أن يقيم حفلاً يدعو فيها الأصدقاء والمعارف ليشاركوه وأباه فرحتها وقد وافق الأب الذي لم يكن ليرفض طلباً لتوني...

وكان أول المدعوين هو الأستاذ المشرف على توني وأبنته جانيت... علقت الزينات و جهزت أشهى المأكولات... وهنا وسط الضحكات والابتسامات كان هناك من يبدو حزينا... جاء اليه توني الا ان هذا الشخص شعر بوجوده بالرغم من أنه لا يراه.

قالت جانيت: أهنيك بنجاحك الباهر يا توني وأتمنى لك الدوام فيه... قال توني وكأنه لم يستمع لتهنئتها: كيف عرفتني أنه أنا بالرغم من أنني لم أصدر أي صوت وانت...؟

قالت جانيت مبتسمة: تقصد عمياء... لقد أدركت من خلال النور الذي يسكن أعماقي فصحيح أنني لا أرى بعيني لكنني من خلال بصيرتي الداخلية أرى ما تعجز العيون عن فحصه قال توني... يا لها من بصيرة نافذة!!..

وكانت مفاجأة لتوني عندما رأى جانيت تضحك بصوت مسموع لأول مرة وهنا أدرك توني أن جانيت لم تكن حزينة كما أعتقد في البداية بل أنها كانت تترك المجال لبصيرتها الداخلية للاستمتاع بكل جزئيات الحفل.

أنتهى الحفل وأطفئت الأنوار وقد ودع مستر فالبرايد وأبنته توني وقد اتجه الأخيران إلى النوم... لم يستطع توني النوم هذه الليلة إذ كانت هناك بعض الكلمات وقد بدت أمام مخيلته مثل قطع الفسفور شديد النقاء كتلك التي في معمله... لقد كانت كلمات جانيت ولا شك، وأخيراً وقبل أن يطبق جفنيه على حدقتيه قال مغمغماً: أنها حقاً عمياء لكنها متميزة... اتجه توني في الصباح الباكر إلى الكلية لاستلام بعض الأوراق الخاصة بدراساته الجديدة... وقد عزم من قلبه أن يحدث تفوقاً في العلم الذي

تخصص فيه... وبالفعل حصل على مآربه وبدأ يتفوق في دراساته وأبحاثه ويدرس كثيراً...

وفي ذات يوم كان توني داخل معمله الخاص يحضر تركيبة كيميائية معينة بواسطة جهاز زجاجي معقد الشكل وكان توني يضبط وقت التجربة بساعة ميكاتية... وقد دق جرس الهاتف (التليفون) وعلى الفور ودون وعي اتجه توني الى جهاز التليفون المثبت في جدار الكوخ ورفع السماعة ووجد أن المتحدث هو شخص عزيز على قلبه ألا وهو جانيت ..

بدأ يتجاذب معها الحديث مستمتعا بنبرات صوتها الرقيق الهادي... وللأسف الشديد نسي توني التجربة الموضوعة على المنضدة وفجأة تذكر توني فاعتذر لجانيت قبل أن ينهي المكالمة واتجه الى جهازه المعقد الذي لم يمهله الفرصة في اتخاذ سائر وانفجر محدثاً دويًا هائلاً...

كان مستر فالبرايد يمسك بمقصه الكبير لتقليم النباتات ووصل الى مسامعه هذا الدوي فالقى المقص من يده وأسرع مهرولا الى مكان الصوت وعندما دخل الكوخ وجد أبنه توني يقف في جانب من جوانب الكوخ وقد اصطبغت عيناه ووجهه بالدماء التي سالت على قدميه الأبيض فصار يشبه الدجاجة المذبوحة ...

لم يصدق الأب عينيه فركض نحو ابنه واحتضنه بقوة... لم يسأله ماذا حدث بل حمله - الاب- على كتفيه رغم كبر سنه متجها به إلى أقرب مستشفى...

وصل الأب الى المستشفى وفي الحقيقة كان في حاله أكثر انهيارا من توني المصاب نفسه وقد حاول الطبيب تهدئة الموقف فقال لوالد توني: مستر فالبرايد نحن نحتاج صلاتك وبعض هدوء الأعصاب... ثم نادي الطبيب الممرضة وطلب منها الاتصال ببعض الأطباء الساعدين لأجراء عملية عاجلة ..

دخل طوني حجرة العمليات وقد أخبره الطبيب أنها مسألة وقت فقط وسيعود كل شيء على ما يرام....

ظل توني حوالي 6 ساعات داخل حجرة العمليات كل هذا الوقت كان على نفسية الأب مثل حجر الرحي الذي يجثم على رأس طفل رضيع... فكانت كل دقيقة تمر كأنها دهر كامل...

خرج الطبيب من الحجرة وهو يخلع الكمامة الواقية من وجهه الذي أرسمت عليه أمارات القلق المصحوب بقليل من الأمل ...

وبمجرد أن رآه مستر فالبرايد ركض نحوه سائلاً بلهفة الغريق الى قشة : كيف حال أبني؟ صمت الطبيب لحظة ثم قال له: مستر فالبرايد نا أعرفك منذ سنوات فقد رأيت فيك الرجولة والمسئولية... فاطعه الأب بغضب متهاالك: ما حال أبني!؟

قال الطبيب: يؤسفني أن أقول لك أن أبنيك فقد عينه اليسرى نتيجة انطلاق شظية ذجاجية أصابت حدقة العين نفسها أما عينه اليمنى فقد أصابتها بعض الأحماض ونحن بصدد علاجها ثم نكمل جراحة التجميل للوجه كله...

لم يتمالك مستر فالبرايد نفسه فسقط على المقعد المجاور له وكأن جبلا قد أنهار لتوه... لكنه انتفض جاذبا بقوة وسأله: هل يمكن زراعة عينان سليمتان لتوني؟ اجاب الطبيب نعم بالتأكيد ... لكن من أين سأتي بهما؟

أجاب الأب: خذ عيناى ... نظر اليه الطبيب في أسى بالغ وقال لست مجرماً لكي أحرملك من نعمة البصر ليأخذها أنسان آخر بصرف النظر عما يكون ذلك الانسان بالنسبة لك... وعرف الأب أن القدر قد أوصى جلاده لينفذ حكمه بإعدام أسرة سعيدة ...

بعد عدة أيام أنتقل توني إلى المنزل وقد جاءت جانيت لزيارته...فقد أصبح هما الأثنان شبه متقاربان في كل شيء... وقد حاولت جانيت تخفيف الصدمة عليه بإضحاكه... إلا أن توني لم يكن حزيناً جداً لأنه كان يستطيع أن يرى جانيت بعينه اليمنى... كان الأب يراقب توني من بعيد محاولاً أخفاء دموعه التي صارت كالشلالات تنهمر من عينيه...

وقد جاء ميعاد زيارة الطبيب لتوني وقد قام بفحص عينيه السليمة
وقد ابدى بعض القلق الذي لم يدركه سوى الأب..

أنتظر الأب الطبيب عندما خرج من غرفة توني وسأله: ماذا وجدت يا
دكتور؟! أجاب الطبيب وقال : من واجبي أن أصارحك أن عين توني
اليمنى التي سبق وقد اصاب بالأحماض الكاوية تضعف يوماً بعد الآخر
... وسيشعر توني بهذا الضعف بعد ثلاث أيام بحسب تقديري من الآن
لم يسقط قلب الأب بين ضلوعه هذه المرة لأنه قد سقط قبلاً بالفعل
بل صمت ولم يفتح فاه ... جلس الأب يفكر ويفكر جاعلاً رأسه مثل
ليمونه معصرة لإيجاد حل لمشكلة توني لكنه لم يجد ... كان الأب يكتوي
بنارين الأولى أخفاقه في عدم وجود حل والثانية عدم تسليمه للواقع
الأليم ...

وقد فكر الأب أن ينشر إعلاناً في الصحف يهب فيه نصف مليون جنيه
استرليني لمن يتبرع بعينه لأبنيه لكنه عدل عن الفكرة لأنه لم يحب أن
يكون النور في عيون ابنه مبني على تعاسة أنسان آخر... مهما كلفه الأمر
من تحدي...

بدأ نظر توني يضعف رويدا رويدا وكل يوم يتفوق على سابقه في سوء
بصره كان هذا الأمر يمزق قلب الأب تماماً وذلك عندما يرى أبنيه
يتحسس الأشياء ويتلمس الحوائط .

وقد ذهب الأب الى توني الذي صار أعمى تماماً وأشار إليه بالسفر لمحاولة
العلاج في بلد أخرى... أبدى توني بعض الاعتراض الا أن أصرار الأب كان
أقوى من رفضه... وفعلاً سافر توني مع والده إلى أحدي البلدان
التخصصة في جراحة العيون... وقد ذهب الى مستشفى ضخمة وأودع أبنيه
في حجرة خاصة بها بعد أن سدد جميع الرسوم المقررة عليه لعلاج توني
بها...

بينما ذهب الأب الى الطبيب وعرض عليه حالة توني ورغبته في زرع
زوج من العيون لأبنيه الأعمى ... لكن الطبيب أعرب عن عدم وجود
متبرعين في الوقت الحالي فأجاب الأب مسرعاً لقد وجدت متبرعا ...

وبالفعل جهزت غرفة العمليات وتمت العملية بنجاح نموذجي وصار توني مبصراً مرة أخرى وكأنه قد كان يجلس في غرفة مظلمة لا ينفذ إليها الضوء وخرج الى النور توأ ..

نظر توني بعينييه الجديدتين - وهو في الفراش - حوله فلم يرى والده فسأل عنه لكن أحدا لم يعرف ليجيبه... وقد أعتقد أن أباه قد ذهب لقضاء حاجة معينة وسيأتي ...

سأل توني عن حالة الشخص الذي تبرع له بعيناه... فأجابه الطبيب أنه توفي... بالتأكيد لم يكن توني يعلم أن المتبرع هو والده نفسه وأن قلبه العجوز لم يكن ليتحمل عملية خطيرة مثل هذه....

كان توني يعرف شيئاً عن حب والده له فربط بين وفاة المتبرع وغياب والده... فطلب رؤية ذلك المتبرع فوراً .

وبالفعل تمكن توني من داخل العنبر الذي يوضع فيه المتوفين بالمستشفى ووقف بجوار جثمان المتبرع... كانت يده المسكة بالملاءة التي تغطي وجه المتبرع ترتجف لا من الخوف بل من تلك الفكرة التي راحت تقول له أن الشخص الموجود أمامك هو والدك... وفعلاً جذب توني الغطاء فعرف صدق تلك الفكرة...

وهنا لم تتحمل قدمي توني ثقل جسمه فسقط مغشياً عليه وأثناء أغماءته كان يتفوه بكلمات مكررة هي مات لأجلي ... مات بسببي

أفاق توني ليجد نفسه في سريره بالمستشفى وتجلس أمامه جانيت التي سافرت اليه هي ووالدها خصيصاً لرؤيته .

كانت الأحداث تمر على توني كحلم مزعج لكن للأسف كان حقيقه... قال توني لجانيت بصوت آسيف : لا أصدق أن أبي مات لأكي أبصر أنا... كيف ... لماذا فعل ذلك؟

قالت جانيت: رغم أنني عمياء لكني كنت أشعر بوالدك يتمزق من أجلك لأنه يحبك كثيراً وقد فعل ذلك لأنه لم يرد أن يجعلك تتقلب على نار الألم مثله ...

قال والد جانيت: حقا كان حب أبك حبا حقيقيا فلا تقلل منه بتأنيبك لنفسك كل الوقت... أباك قد فعل ذلك لكي تصير أنت سعيدا...

وعاد توني الى وطنه بعد أن تماثل للشفاء... مرت السنين وتزوج توني أبنه أستاذه وأنجبت له جانيت أبنان شقراوين وقد حصل على رسالة الدكتوراة وأصبح أستاذا بالجامعة التي تخرج منها...

كل هذا مر في ذهن توني في لحظة تطلعه لذلك الكوخ القديم الذي أعده له والده من قبل. لكن ثمة صوت كان يدوي في أعماق توني، لا تبكي يا حبيبي فأنت الآن رجلا نظيري... سنزيد من حبنا لبعضنا سنتألف أكثر حتى لو قابلتنا أعتى الرياح ولو حاولت الأمواج قصف سفينتنا سيظل حبنا لبعضنا عربون قوتنا وتحديا للتجارب
أجاب توني الصوت
"نعم يا والدي"